

الفصل السّابع

ثمار الإيمان بالقدر

بيننا من قبل أن عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام مبرأة من التخاذل والكسل والخمول الذي أصاب قطاعاً كبيراً من الأمة الإسلامية عبر العصور باسم الإيمان بالقدر، والمسؤول عن ذلك هو انحراف المسلمين في باب القدر حيث لم يفقهوه على وجهه.

ومن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كثيرة طيبة، كانت ولا زالت سبباً في صلاح الفرد والأمة.

وسنحاول أن نجلي بعض ثماره التي ظهرت خلال هذه الدراسة.

١ - الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، وأن الشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هذا القول فراراً من نسبة الشر إلى الله تعالى^(١).

والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر.

والذين زعموا من هذه الأمة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها أثبتوا خالقين من دون الله.

ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرّ أن الله وحده الخالق لكل شيء

(١) شفاء العليل: ص ١٤.

في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحّدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك. فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن بهذا الإيمان فإنه يجعل من دون الله آلهة وأرباباً.

٢- الاستقامة على منهج سواء في السراء والضراء:

العباد بما فيهم من قصور وضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تئسسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدييره ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ولا يكون حاله حال قارون الذي بغى على قومه، واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال: ﴿إِنَّ قُلُوفَهُ كَانَ مِّن قَوْمٍ مُّوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

فإذا أصاب العبد الضراء والبلاء علم أن هذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس، بل يحتسب ويصبر، فيسكب هذا الإيمان في قلب العبد

المؤمن الرضا والطمأنينة ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقد امتدح الله عباده: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٣- المؤمن بالقدر دائماً على حذر:

المؤمنون بالقدر دائماً على حذر ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضره كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد.

٤- مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والأجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان

هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيايين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثمّ تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هذا الإيمان من أعظم ما ثبتّ قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة، لا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله، وما قدر لهم سيأتهم.

وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله، وما كتبه الله لعبده من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه الله لعبده من عبيدة لا يستطيع أحد إيصاله إليه.

المراجع

- ١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. دار الآفاق الجديدة - بيروت. الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢- جامع الأصول لابن الأثير. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ٣- سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية - القاهرة.
- ٤- سنن الترمذي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. لأبي القاسم هبة الله بن الحسين الطبري اللالكائي. دار طيبة - الرياض.
- ٦- شرح العقيدة الطحاوية. المكتب الإسلامي - بيروت. الرابعة ١٣٩١هـ.
- ٧- شرح النووي على صحيح مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.
- ٨- الشريعة للأجري. دار الكتب العلمية - بيروت. الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٩- شفاء العليل لابن القيم. دار الكتاب العربي - مصر.
- ١٠- صحيح البخاري. اعتمدت على متن فتح الباري. طبعة السلفية.

- ١١- صحيح الجامع الصغير. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت.
- ١٢- صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي. الرياض. الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٣- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث - بيروت الثانية ١٩٧٢م.
- ١٤- العقيدة الطحاوية. شرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت الأولى. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ١٥- فتح الباري لابن حجر. طبعة السلفية - القاهرة.
- ١٦- الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر الإسفراييني. دار المعرفة - بيروت.
- ١٧- القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة - بيروت. الأولى. ١٤٠٦هـ.
- ١٨- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. دولة قطر.
- ١٩- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. المكتبة العلمية - بيروت.
- ٢٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع ابن قاسم. طبع دولة المملكة العربية السعودية.
- ٢١- مشكاة المصابيح. للخطيب التبريزي. بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٢م.

٢٢- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد
لأحمد حافظ حكيم. مطبوعات الرئاسة العلمية لإدارات البحوث -
الرياض.

٢٣- معالم السنن للخطابي على مختصر سنن أبي داود للمنذري. مطبعة
السنة المحمدية. ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

٢٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد
كيلاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.
١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٢٥- الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة - بيروت. الثانية. ١٣٩٥هـ
- ١٩٧٥م.